

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وأهل بيته الطاهرين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

### طبيعة الطغيان ومصائر الطغاة

#### والموقف: المواجهة السلمية الشاملة

(٨)

قال الله العظيم: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ \* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

حقائق كثيرة تستبطنها هاتان الآيتان الكريمتان وبصائر منوعة ومعقدة تحتضنها وتفصح عنها، وسنلقي اليوم الضوء على بعض البصائر في جملة ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فإن هذه الجملة تتضمن بصائر كلامية، سيكولوجية وسياسية، ولنستعرض هذه البصائر الثلاثة بشيء من الإيضاح:

#### ١ - كلامياً: سُنَّة الإهلاك فيما إذا أغلق الناس جميع الأبواب

**البصيرة الكلامية:** ان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ الذي جاء بديلاً كلامياً معمقاً عن القول ب(وما آمنوا) أو (ولم يؤمنوا) يكشف إلى جوار العديد من الآيات الكريمة الأخرى المناظرة، القناع عن المعادلة الإلهية التي تحدد مصير الإنسان والأمم وتشير إلى إحدى الحدود العليا من الألفاظ الإلهية بهذا الإنسان الظلوم الجهول، وهذه المعادلة: هي ان الله تعالى لا يعذب بعذاب الاستئصال والإهلاك، الأمم والشعوب الظالمة كما لا يهلك الأفراد والأشخاص الطغاة، إلا بعد إغلاق العبد / الحاكم / الأمة، كافة أبواب الصلاح والإصلاح والتوبة إلى الله تعالى، وبعبارة أخرى: ان الله تعالى لا يهلك شخصاً أو أمة إلا بعد استفادها كافة الفرص المتكاثرة التي يمنحها الله تعالى له في طيات عشرات / ألوف المواقع أو الأحيان.

**وذلك بالضبط هو واحد من أهم ما يشكل الفوارق بين الموالى العرفية وبين مولى المولى ورب الأرباب، ذلك ان أحدنا إذا وظّف شخصاً كأمين للصندوق أو كسكرتير أو مساعد أو سائق أو خادم، فسرق من الشركة أو من المنزل، فان الكثير منا يطرده فوراً، ثم إذا تاب لا يعيده إلى موقعه، ولكن القليل منا قد يرق له فيعيده إلى وظيفته إذا ندم وتاب، لكنه إذا سرق للمرة الثانية فاننا لا نقبل له عذراً حينئذٍ وستجد الأكثرية شبه المطبقة تطرده إلى غير رجعة، ولكن قد يبقى النادر ممن إذا رأى توبته يستبقيه أو يرجعه إلى وظيفته بعد طرده.. لكنه إذا سرق للمرة الثالثة.. أو الرابعة.. أو حتى الخامسة فهل تجد أحداً يستبقيه أو يعيده إلى وظيفته بعد ذلك؟، ولو زدنا عدد سرقاته كلما عاد إلى السادسة فالسابعة فالعاشرة.. فانه يستحيل ان تجد شخصاً يستبقيه بعد ان سرقه عشر مرات أو**

(١) سورة يونس: الآيتان ١٣-١٤.

عشرين أو ثلاثين أو أربعين مرة.. وكذلك لو ضرب هذا الموظف رئيس الشركة أو المصنع فطرده ثم تاب فأعادته إلى العمل فضره مرة أخرى، فطرده ثم أعاده لكنه عاد ليضره من جديد.. فهل ترى من يستبقه بعد المرة الثالثة أو الرابعة أو، غاية الأمر، العاشرة؟ كلا.. ثم.. كلا.

### أبواب العودة إلى الله مفتحة دائماً.. ولكن..

ولكن الله تعالى، كما تشهد به الآيات وتبني عليه إحدى مسائل علم الكلام، لا يغلق باب التوبة بوجه عبده أبداً.. فلو طغى وتجبر وعصى وفعل ما فعل مرة.. مرتين.. عشر مرات.. خمسين مرة.. مائة مرة.. ألف مرة.. ثم تاب تاب الله تعالى عليه ولو بلغ ذلك عشرات الألوف من المرات طوال سنين حياته فإنه تعالى لا يغلق عنه باب التوبة إلا إذا شاهد الموت عياناً ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ \* وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ \* وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ \* وَالتَّتَمَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ \* إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى لفرعون: ﴿آلَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ \* فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

والآية الشريفة - في صدر المبحث تشير إلى هذه القاعدة الكلامية والقانون الإلهي فان الله تعالى لا يهلك القرون بمجرد ظلمهم للآخرين، بل بعد إتمام الحجة عليهم أيضاً ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾<sup>(٣)</sup> بل ولا يهلكهم حينذاك بل إنما يهلكهم بعد ان يغلقوا على أنفسهم كافة أبواب العودة إلى الرب الكريم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فإذا علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون أبداً ولا يُقْلَعُونَ عن ظلمهم وعدوانهم فحينئذٍ تحل بهم قارعة مهلكة من قوارعه جل اسمه.

### متى أهلك الله قوم نوح؟

وهكذا جرت سُنَّةُ الله في الخليقة وستبقى أبد الدهر كذلك:

فالكفار في زمن النبي نوح عليه السلام، لم يهلكهم الله تعالى إلا بعد:

أ- استنفادهم كافة الفرص.. وإصرارهم على غيهم وعنادهم وقطعهم كافة خطوط الرجعة إلى الله تعالى: ﴿وَأَوْحِيٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ \* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ \* وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ \* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ \* حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة القيامة: الآيات ٢٦-٣٠.

(٢) سورة يونس: الآيات ٩١-٩٢.

(٣) سورة يونس: الآية ١٣.

(٤) سورة هود: الآيات ٣٦-٤٠.

**والغريب** في قضية قوم نوح عليه السلام، وليس بغريب بل انها سُنَّة الله تعالى الخالدة: انه لم يهلكهم إلا أ - بعد استفادهم كافة الفرص وعنادهم ولجاجهم بحيث لم يبق هناك احتمال واحد بالألف بل حتى واحد بالمليون، لأن يرتدعوا ويتوبوا.

ب - وبعد إنقاذ كافة المؤمنين، على مدى المستقبل البعيد المجهول، الذين يرقدون في أصلابهم، بمعنى انه لو كان في علم الله تعالى ان أحد أحفاد أحدهم أو أحد أحفاد أحفاده أو أحفاد أحفاد الأحفاد.. حتى يوم القيامة، سيكون مؤمناً يخرج من صلب هذا الرجل لما أهلكه الله تعالى، بل إنما أهلكهم بعد ان خرج كافة المؤمنين من أصلابهم إلى هذه الدنيا ولم يبق من الكفار إلا من لا يلد إلا كافراً فاجراً وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا \* إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾<sup>(١)</sup>.

### ولماذا لم يثر الإمام علي عليه السلام بالسيف؟

وذلك يعد من أسرار عدم تجنب الإمام علي عليه السلام - القيام بالسيف في وجه القوم.. حيث اعترض بعض من يجهل المعادلة الإلهية الكلامية السابقة.. انه كيف لم يثر علي عليه السلام ولم يقف بوجه القوم ويقود ثورة مسلحة وهو تلك القمة الشاخنة في الغيرة والحمية والشجاعة والأنفة إذا كان القوم حقاً قد ضربوا البضعة الطاهرة أو عصروها بين الباب والجدار فكيف إذا كانوا قد اسقطوا منها الجنين!

والسبب في ذلك يعود فيما يعود إلى تلك المعادلة الإلهية الكلية العامة.. وذلك لأن الإمام عليه السلام لو ثار بالسيف لقضى عليهم وقتل الكثيرين منهم، كيف لا وهو قالع باب خبير.

**يَا قَالِعَ الْبَابِ الَّذِي عَن هَزِهِ عَجَزَتْ أَكْفُ أَرْبَعُونَ وَأَرْبَع**

كما انه القائل: «وَاللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَيَّ قِتَالِي لَمَا وُلِّيْتُ عَنْهَا»<sup>(٢)</sup>.. ولكن المعادلة الإلهية السابقة لم تكن تسمح بذلك أبداً.. إذ كان في أصلاب القوم رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ولو قتل الإمام أولئك القوم لما ولدت تلك الودائع الإلهية وقد جرت حكمة الله تعالى على ان يولدوا في هذه الحياة الدنيا.. ولذلك السبب نفسه لم يأذن الله بالطوفان إلا بعد تسعمائة وخمسين سنة، وأمر نوحاً والمؤمنين بالصبر طوال هذه السنين وتحمل شتى ألوان العذاب والإيذاء كي يزيّل المؤمنون من أصلاب الكافرين.. وحينذاك فقط إذن الله تعالى بإهلاك الكافرين.

### تفسير ﴿لَوْ تَرَيُّلُوا﴾ بالتنزيل

وذلك هو ما تفصح عنه الرواية التالية بأبلغ بيان.. كما وردت في تفسير القمي والصافي وغيرهما.

قال في الصافي: ( ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا﴾ محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ

(١) سورة نوح: الآيتان ٢٦-٢٧.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

﴿مِحْلَهُ﴾ الهدي ما يهدى إلى مكة ومحله مكانه الذي يحل فيه نحره ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾<sup>(١)</sup> القمي: يعني بمكة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أن تواقعوا بهم وتبتدؤهم ﴿فَتَصِيْبُكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم ﴿مَعْرَةً﴾ مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعبير الكفار بذلك والاثم بالتقصير في البحث عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي تطئوهم غير عالين بهم وجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم)<sup>(١)</sup> وفي تفسير الصافي (القمي): أخبر الله عز وجل نبيه أن علة الصلح إنما كان للمؤمنين والمؤمنات الذين كانوا بمكة ولو لم يكن صلح وكانت الحرب لقتلوا فلما كان الصلح آمنوا وأظهروا الاسلام ويقال إن ذلك الصلح كان أعظم فتحا على المسلمين من غلبهم ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لما دل عليه كف الأيدي من أهل مكة صونا لمن فيها من المؤمنين أي كان ذلك ليدخل الله في توفيقه لزيادة الخير والاسلام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من مؤمنينهم أو مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والسي، القمي: يعني هؤلاء الذين كانوا بمكة من المؤمنين والمؤمنات لو زالوا عنهم وخرجوا من بينهم لعذبنا الذين كفروا منهم)<sup>(٢)</sup> فهذا كله عن التنزيل، وأما التأويل:

### تفسير ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ بالتأويل

ف(عن الصادق (عليه السلام) إنه سئل ألم يكن علي (عليه السلام) قويا في بدنه قويا في أمر الله؟ فقال: بلى! قيل: فما منعه أن يدفع أو يمتنع؟ قال: سألت فافهم الجواب، منع عليا (عليه السلام) من ذلك آية من كتاب الله تعالى، فقيل وأي آية؟ فقرا: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ الآية إنه كان لله تعالى ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين فلم يكن علي (عليه السلام) ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع فلما خرجت ظهر علي من ظهر وقتله، وكذلك قائمنا أهل البيت (عليهم السلام) لا يظهر أبدا حتى تخرج ودائع الله فإذا خرجت يظهر علي من يظهر فيقتله.

وفي الاكمال عنه (عليه السلام) ما في معناه بأسانيد متعددة منها قال في هذه الآية لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذبنا الذين كفروا)<sup>(٣)</sup>.

(١) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، مكتبة الصدر . طهران: ج ٥ ص ٤٣، تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، دار الكتاب . قم: ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، مكتبة الصدر . طهران: ج ٥ ص ٤٣، تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، دار الكتاب . قم: ج ٢ ص ٣١٦-٣١٧ .

(٣) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، مكتبة الصدر . طهران: ج ٥ ص ٤٣، تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، دار الكتاب . قم: ج ٢ ص ٣١٦-٣١٧، الشيخ الصدوق، كمال الدين، دار الكتب الإسلامية . قم: ج ٢ ص ٦٤٢ .

وهذا نص ما جاء في كتاب كمال الدين: «عن يونس بن عبد الرحمن عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ لو أخرج الله عز وجل ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذب الذين كفروا»<sup>(١)</sup>

وقد ظهر بذلك ان الإمام المهدي عليه السلام لا يظهر إلا بعد تزيل المؤمنين من الكافرين (وتزيلوا) يعني تميزوا وزال هؤلاء عن هؤلاء أي انفصلوا عنهم ولا يكون ذلك إلا بان تخرج من أصلاب الآباء كافة نطف المؤمنين الذين كان مقدراً لهم ان يولدوا من تلك الأصلاب، على امتداد الأجيال.

## ٢- سيكولوجيا: شاكلة الطغاة

وأما سيكولوجياً: فان هذه الجملة من الآية الكريمة تفصح عن شاكلة الطغاة النفسية وانهم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أبداً وان طبيعتهم لم تكن لتتغير أبداً وانهم كانوا سيقون مهما بقوا على ما كانوا عليه من الظلم والعدوان والتجبر والطغيان، وقد أشارت آيات عديدة إلى طبائع الطغاة والمستغنين ونظائرهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ \* أَن رَّأَهُ اسْتَغْنَى﴾<sup>(٢)</sup> والغنى لا يختص بالغنى المالي، إطلاقاً أو ملاكاً، إذ قد يستغني عن الغير بماله، أو بقدرته أو حتى بعلمه فان الاستغناء بكل صورته مثار الطغيان.

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* أَ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾<sup>(٣)</sup> فهي طبيعة الطغيان التي تقتضي الاستعلاء وتكذيب الرسل وكيل التهم لهم بدل الانقياد إليهم.

ومن هنا، فان التعويل على وعود الطغاة، خطأ فاحش، ذلك ان الطغاة متى ضعفوا فانهم يطلقون الوعود إثر الوعود لخداع السذج والبسطاء، فإذا استعادوا قوتهم، عادوا إلى سوء سيرتهم.. فهذه سيكولوجيتهم وشاكلتهم وطبيعتهم، وقد قال الإمام علي عليه السلام: «وَلَكِنَّ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلَاحِهِ فَإِنَّ الْعَدُوَّ رَبُّمَا قَارِبٌ لِيَتَغَفَّلَ فَخُذْ بِالْحَزْمِ وَاتَّهَمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ»<sup>(٤)</sup> وكذلك الحاكم المستبد إذا وعد فإنما يعد ليتغفل؟

فإذا كان الطغاة هم كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وإذا كانت طبيعة الاستبداد هي الاستئثار والاستعلاء والمكر والاحتيال للبقاء في السلطة وامتصاص ثروات الشعب بألف طريقة وطريقة، فان استراتيجية التعاطي معهم يجب ان تتغير.. وذلك هو ما ينقلنا إلى المحور الثالث وهو المحور السياسي:

## ٣- سياسياً: لا تعولوا على وعود الحكومات

(١) الشيخ الصدوق، كمال الدين، دار الكتب الإسلامية . قم: ج ٢ ص ٦٤٢.

(٢) سورة العلق: الآيتان ٦-٧.

(٣) سورة الذاريات: الآيتان ٥٢-٥٣.

(٤) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

وأما سياسياً: فان الموقف السياسي للعلماء وأساتذة الجامعات والمتقنين والأطباء والمهندسين والمحامين وغيرهم وكذلك الأحزاب والنقابات والاتحادات وكافة مؤسسات المجتمع المدني، من الحكومات الظالمة، يجب ان يتحدد على ضوء الحقيقتين الكلامية والنفسية السابقتين، فإنه إذا كانت شاكلة القوم المجرمين هي ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وكانت طبيعة الظلم والعدوان فيهم متأصلة ومما لا ينفكون عنه ولا يطيقون تركه أو مفارقتة، فان الاستراتيجية تجاه الحكام الجائرين يجب ان تبني على هذا الأساس (عدم التعويل على وعودهم، أو على دعاوى صلاحهم وإصلاحهم) أبداً.

### واستثمروا في الشعوب

ويجب تبعاً لذلك توجيه الاستراتيجية باتجاه الاستثمار في الناس، عامة الناس، عبر رفدهم بالفكر والثقافة ومنحهم الحصانة من ان يكونوا مطية للظالمين والجائرين والطغاة والمستبدين ومن ان تنطلي عليهم أكاذيب المسؤولين والسلطين الذين اتخذوا (الكذب) أفضل استراتيجية لهم حتى آمنوا بأكذب ثم أكذب ثم أكذب حتى يصدقك الناس، ومن المعروف ان (توبة الذئب الموت) أي انه لا يعقل أن يتوب إلا إذا مات حقاً!!.. وكذلك الدكتاتور لا يعقل ان يتوب أبداً.

إضافة إلى ذلك فان الاستراتيجية الصحيحة هي دفع الشعب باتجاه تكثير، تكريس وتطوير مؤسسات المجتمع المدني الحاضنة لحقوق الناس.

### والتزموا بالمعارضة السلمية الشاملة

وأيضاً: توجيه الشعب لكي يواجه الظالمين بالكلمة الناقدة على طول الخط وعلى مختلف المستويات وبالموقف الصريح والمعارضة السلمية عبر الإضرابات الشاملة والمظاهرات العامة السلمية.. فان هذا هو الطريق الوحيد للتغلب على استبداد الحكومات الجائرة في بلادنا والتي تسلحت بسلاح الاستقواء بالقوى الاستعمارية والإتكاء عليها. **تأكيداً:** المعارضة السلمية ولا غير.. ذلك ان العنف يولد العنف المضاد حتى تتسلسل حلقاته إلى ما لا نهاية.. ذلك انه إذا بدأت رحلة السقوط في دوامة العنف فانه سيكون أشبه بالمحال إيقافها إلا بعد دمار البلاد بأكملها، وربما لا يتيسر ذلك إلا بعد عشرات السنين، ولنعتبر بسوريا كمثال وليبيا كمثال آخر واليمن كمثال ثالث، على ما بينها من فوارق في الأسباب والظروف والبواعث والخلفيات.

### رواندا: قتل الرئيس.. والانتقام المضاد

ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على الأحداث الرهيبة التي جرت في رواندا عام ١٩٩٤ فان قبائل الهوتو، وهم الأكثرية، مارسوا أنواعاً من الظلم بحق الأقلية من قبيلة (التوتوسي).. ومن هنا انبثقت فكرة مواجهة العنف بالعنف والقتل بالقتل في أذهان أجنحة من الأقلية.. وبالفعل تسلحت المعارضة.. وتطورت.. حتى توصلت إلى ضرورة ان توجه ضربة مدوية للحكومة.. وبعد تخطيط دقيق متقن وتدريب عال وتجسس متطور استطاعوا ان يكتشفوا بعض

دروس في التفسير والتدبر (٣٥٠) ..... الأربعاء ١٥ ذو القعدة / ١٤٤٣ هـ  
تحركات رئيس الحكومة.. وجاءتهم الفرصة الذهبية عندما اكتشفوا توقيت ومسار حركته بالطائرة.. وهكذا تمت  
الاستعدادات لإسقاط طائرة الرئيس (جوفينال هايياريماننا) أثناء هبوطها في العاصمة الرواندية (كيغالي) في ٦ نيسان  
١٩٩٤... وكذلك كان...

### ثمانمائة ألف جريمة قتل واغتصاب!!

ومن الواضح ان المعارضة أحست بنشوة الانتصار الكبير المذهل.. ولكن، وكما سبق، فان العنف يولد العنف  
المضاد ويرتدّ مفعوله على أصحابه، إذ ان الحكومة اللاحقة وكرّد فعل همجي انتقامي أصدرت قراراً بإبادة عامة  
للتوتسيين، وهكذا وخلال مائة يوم فقط قتل الهوتو حوالي ثمانمائة ألف من التوتسيين، بل واغتصبوا مآت الألوف من  
النساء.. كما وسرقوا كل بيت بيت يمتلكه التوتسيين!..

وهنا لنفكر قليلاً: أي انتصار شكّله إسقاط طائرة الرئيس! انه الجهل والتعصب وقصر النظر الذي يصور العنف  
والسلاح هو الحل، مع انه اسوأ الحلول وأخطرها إن كان حلاً أصلاً!

ولنقتبس هنا بعض ما ذكرته التقارير: (أعمال عنف واسعة النطاق بدأت في ٧ أبريل واستمرت حتى منتصف  
يوليو ١٩٩٤م، حيث شن القادة المتطرفون في جماعة الهوتو التي تمثل الأغلبية في رواندا حملة إبادة ضد الأقلية من  
قبيلة توتسي<sup>(١)(٢)(٣)</sup>. وخلال فترة لا تتجاوز ١٠٠ يوم، قُتل ما يقارب ٨٠٠,٠٠٠ شخص وتعرضت مئات الآلاف  
من النساء للاغتصاب. وقتل في هذه المجازر ما يقدر بـ ٧٥% من التوتسيين في رواندا).

ومزيد التفصيل: ان الصراع بدأ عام ١٩٦٢ بين الحكومة التي يشكل الهوتو أغليبتها الساحقة، والجبهة الوطنية  
الرواندية المؤلفة من اللاجئيين التوتسيين الذين هربوا إلى أوغندا بعد ثورة الهوتو ضد الاستعمار عام ١٩٥٩. (ولقد  
شنّ الهوتو سلسلة من الهجمات العنيفة على الجبهة الوطنية الرواندية والتوتسيين عموماً عقب استقلال رواندا عام  
١٩٦٢. وأدت الضغوطات الدولية على حكومة الهوتو بقيادة جوفينال هايياريماننا إلى وقف إطلاق النار خلال فترة

(١) "POLISMedia، The Media and the Rwanda Genocide"، مؤرشف من الأصل في ٢٣ سبتمبر  
٢٠٠٩، اطلع عليه بتاريخ ٣٠ أغسطس ٢٠١٠.

(٢) Rwanda: How the genocide happened، بي بي سي، May 17, 2011, which gives an  
estimate of 800,000, and OAU sets inquiry into Rwanda genocide, Africa  
Recovery, Vol. 12 1#1 (August 1998), p. 4, which estimates the number at  
between 500,000 and 1,000,000. Seven out of every 10 Tutsis were killed

مؤرشفة"، مؤرشف من الأصل في ٩ سبتمبر ٢٠١٧، اطلع عليه بتاريخ ١٧ ديسمبر ٢٠١٧.  
(٣) Caplan, Gerald (13 مارس ٢٠٠٧)، "Rwanda's Genocide: First the Deed, Then the Denial" (PDF)،  
The Globe & Mail، مؤرشف من الأصل (PDF) في ٢٥ يناير ٢٠١٨، اطلع عليه بتاريخ ٠١  
يونيو ٢٠١٥.

الحرب الأهلية عام ١٩٩٣، ووضعت خارطة طريقٍ لتنفيذ اتفاقية السلام بين الحكومة الرواندية والجبهة الوطنية، حيث عُرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية أروشا أو Arusha Accords.

كان الهدف من خارطة الطريق تقاسم السلطة بين الجبهة الوطنية الرواندية وعددٍ من شخصيات الهوتو المحافظة، بمن فيهم أعضاء الـ «أكازو» الذين عارضوا الاتفاقية بوصفها تنازلاً لمطالب العدو.

أدت الحملة العسكرية التي شنتها الجبهة الوطنية إلى تأكيد إيديولوجية شعب الهوتو، والذين يعتبرون أنفسهم شعباً متفوقاً، ويدعون أن الجبهة الوطنية قوةً خارجية دخيلة. حيث تصوّر الحكومة في الراديو ووسائل الإعلام شعب التوتسي كأشخاصٍ غير مؤمنين، يحاولون استعادة الملكية التوتسية واستعباد شعب الهوتو. بالطبع، رفض عددٌ هائلٌ من شعب الهوتو تصديق هذه الادعاءات.

### إسقاط طائرة رئيس الحكومة وحملة الإبادة المضادة

أسقطت طائرة تقل رئيس الحكومة جوفينال هابياريمانا ورئيس حكومة بوروندي سيريان نتارياميرا أثناء هبوطها في العاصمة الرواندية كيغالي في السادس من شهر نيسان عام ١٩٩٤.<sup>(١)</sup>

كانت الطائرة في الجو أعلى منزل هابياريمانا، وأنهى هذا الاغتيال بدوره اتفاقية السلام.

بدأت المذابح الجماعية في اليوم التالي للحادثة السابقة. وشرعت قوات الشرطة والميليشيات والقوات العسكرية بإعدام شخصياتٍ رئيسية من التوتسي، والقادة السياسيين والعسكريين المعتدلين من الهوتو، بسبب تخوفهم من قيام هؤلاء القادة بالاستيلاء على السلطة عقب الفراغ السياسي الحاصل.

أنشأ المسلحون نقاط تفتيش وحواجز لتفتيش جميع السكان الذين يحملون هوية روندية. حيث تحوي الهوية الروندية معلوماتٍ عن الهوية العرقية، وهو تصنيفٌ أدرجته الحكومة البلجيكية أثناء فترة الاستعمار عام ١٩٣٣. ساعدت بطاقات الهوية قوات الحكومة في التعرف على التوتسيين وقتلهم.

قامت القوات الحكومية المسلحة بتجنيد المدنيين الهوتو وحثهم على حمل السلاح، أي سلاح متوفر كالمناجل والهرارات أو أي سلاحٍ حاد. كما شجعت الهوتو على اغتصاب وقتل جيرانهم التوتسي وتدمير أو سرق ممتلكاتهم). ولقد بدأت حملات القتل الواسعة على الأساس العرقي<sup>(٢)</sup> بعد ساعاتٍ فقط من مقتل رئيس الحكومة

(١) M, Mark (03 يناير ٢٠٠٩)، "The Rwandan Genocide: Role of the Media, Local

Politics and the International Community"، مؤرشف من الأصل في ٢٠ أبريل ٢٠١٩.

(٢) James, Paul (2015)، "Despite the Terrors of Typologies: The Importance of

Interventions: International ، Understanding Categories of Difference and Identity"

،17 (2): 174–195, Journal of Postcolonial Studies

،doi:10.1080/1369801x.2014.993332، مؤرشف من الأصل في ١٠ يونيو ٢٠١٩.



هايباريماناً<sup>(١)</sup>. استولت لجنة الأزمات بقيادة تيونيست باجوسورا على السلطة في البلاد بعد مصرع الرئيس السابق، وكانت اللجنة المنسق الرسمي المسؤول عن المذبحة.

أصدر تيونيست باجوسورا أوامر القتل مباشرة بعد استلامه السلطة، في خطاب عام له في العاصمة كيغالي. كما أجرى مكالمات هاتفية مع قادة الولايات ووزير الدفاع وقائد القوات المظلية ورئيس الحرس الرئاسي<sup>(٢)</sup>.

كان الحرس الرئاسي وفرق النخبة من الجيش المشرفين الرئيسيين على المذبحة في العاصمة كيغالي، بالإضافة إلى ميليشيات أخرى ساعدت في إقامة حواجز الطرقات<sup>(٣)</sup>. كانت الميليشيات تطالب أي عابر إظهار بطاقة تعريفه الوطنية، وهي البطاقة التي تحوي على معلومات عن العرق. لذا كانت القوات الحكومية تتعرف على التوتسيين وتذبجهم فوراً<sup>(٤)</sup>.

قامت الميليشيات أيضاً باقتحام منازل التوتسيين وتفتيشها وسرقة ما أمكن وذبح المواطنين<sup>(٥)</sup>. ولعب رئيس إقليم كيغالي فيل، Tharcisse Renzaho، دوراً رئيسياً في المذابح التي حصلت. فكان يطوف حواجز الطرقات ويشرف على أداء المسلحين، ويستخدم منصبه الرفيع لإقضاء المسؤولين الرسميين إن لاحظ تقاعسهم عن قتل التوتسيين.

أما في الأرياف، فقام المدنيون بارتكاب معظم جرائم القتل تلبية لأوامر القادة المحليين<sup>(٦)</sup>. عاش التوتسي والهوتو جنباً إلى جنب في السابق، وكان الجميع يعرف الآخر، لذا لم يكن استهداف التوتسي في الأرياف صعباً على الإطلاق<sup>(٧)</sup>. ينسب جيرارد برونير اشتراك الهوتو في الجرائم إلى مزيج من عدة عوامل: أيديولوجيا الأغلبية الديمقراطية<sup>(٨)</sup>—أي اعتبر الهوتو التوتسيين أعداءً وخطراً على الدولة<sup>(٩)</sup>، وطاعة السلطة العمياء، وعامل الإكراه—قتل أي شخص يرفض إطاعة الأوامر وقتل التوتسيين، واعتباره متعاطفاً مع الأعداء.

وقد ازدادت وتيرة القتل والمذابح على يد الحرس الرئاسي وميليشيا الشباب—بدعم من السكان المحليين—في

(١) Melvern 2004، صفحة ١٦٥.

(٢) Melvern 2004، صفحات ١٤٦-١٤٧.

(٣) Melvern 2004، صفحة ١٦٤.

(٤) Prunier 1999، صفحات ٢٤٤ ٢٤٥.

(٥) Prunier 1999، صفحة ٢٣٦.

(٦) Prunier 1999، صفحة ٢٤٢ ٢٤٣.

(٧) Prunier 1999، صفحة ٢٤٣.

(٨) Prunier 1999، صفحة ٢٦١.

(٩) Melvern 2004، صفحة ٢٠٤.

أواخر شهر نيسان وأول شهر أيار. يعتقد برونير أن عدد القتلى وصل إلى ٨٠٠ ألف روندي في الأسابيع الست الأولى<sup>(١)</sup>. وهو معدل أعلى بخمس مرات من معدل قتلى الهولوكوست في ألمانيا النازية. اقتضت الخطة قتل جميع التوتسيين الذين يعيشون في رواندا<sup>(٢)</sup>، ولم يملك هؤلاء أي قوة تردع آلة القتل العنيفة سوى الجبهة الوطنية الروندية. كما قتل عددٌ لا بأس به من الهوتو على يد الحكومة نفسها لأسباب متنوعة، كالتعاطف مع المعارضة المعتدلة، أو نقل الأخبار والعمل كصحفي، أو مجرد امتلاك المرء ملامح شعب التوتسي).

### المعارضة السلمية الشاملة قادت الهند إلى أعظم انتصار على الاستعمار

وذلك على العكس تماماً من الموقف السلمي المطلق الذي اتخذته غاندي حيث رفع راية اللاعنف مقابل الاستعمار البريطاني.. ورغم كثرة جرائم الإنكليز في الهند وتنوع اعتداءاتهم على المواطنين وعلى المتظاهرين إلا أن القيادة كانت حازمة جداً في انتهاج منهج المظاهرات والإضرابات السلمية تماماً.. حتى أن نهر (رئيس الوزراء في أول حكومة بعد التحرير) قال: كان غاندي قد أمرنا بأن لا نرد على العنف بالعنف أبداً.. وكنا نخرج في مظاهرات بمآت الألوف وأكثر، وكانت الشرطة والاستخبارات وعددهم بالألوف فقط، ينهالون علينا ضرباً بالهراوات.. ورغم أنهم كانوا كلقمة سائغة في بحر المتظاهرين.. ورغم أننا كنا نستطيع أن نقضي عليهم تماماً، إلا أن غاندي كان قد أمرنا باللاعنف المطلق حتى أننا كنا نشبّك أيدينا خلف ظهورنا كي لا تنفلت أعصابنا فنضرب الشرطي الذي يضربنا بهراوته بقسوة!

وهكذا أمكن للشعب الهندي بناء أكبر ديمقراطية مستقرة منذ أكثر من سبعين سنة، ولا تزال تتطور وتتطور حتى أن بعض الخبراء الاستراتيجيين في الغرب يرون أن الهند ستتحول إلى ثاني أكبر قوة عظمى في العالم، اقتصادياً وعسكرياً، في العام ٢٠٥٠، الذي يقترب منا بسرعة!!

أما بلادنا الغارقة في الاستبداد.. ثم في العنف والعنف المضاد فإنها تنتقل من خراب إلى دمار ومن دمار إلى هلاك، لا سمح الله، مسجّلة مصداقاً آخر، لا سمح الله، للإنذار الإلهي الخالد ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ \* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ .. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾؟

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد واله الطيبين الطاهرين